رأي القدس

انتهاك حرمة الصحافيين في مصر

■ تحتل مصر مكانة متقدمة على قائمة الدول التي تقمع الحريات الصحافية، وتفرض رقابة صارمة على شبكة الانترنت، ولهذا لم يكن مستغربا ان تتعرض الزميلة هويدا طه الصحافية في قناة «الجزيرة» الفضائية والكاتبة في صحيفتنا «القدس العربي» الى الاعتقال من قبل قوات الامن المصرية، وتوجيه النائب العام المصري تهمة اليها تتعلق بالاضرار بالامن القومي وتحديد موعد لمحاكمتها في الاشهر المقبلة.

الزميلة هويدا طه كانت تؤدي عملا مشروعا، يتلخص في اعداد برنامج وثائقي عن التعذيب الذي تمارسه قوات الامن المصرية في حق المعتقلين لانتزاع اعترافاتهم وحصلت على تصريح رسمي بالتصوير من الجهات المعنية، وحرصت على الالتقاء بالمسؤولين المصريين لطرح وجهة نظرهم كاملة والرد على كل الاتهامات.

صحافيون من مختلف دول العالم زاروا مصر، واعدوا برامج عن انتهاكات حقوق الانسان والختان والشذوذ الجنسي في مصر، ولكن الجهات الامنية لم تعترض ايا منهم لانها تخشى من الدول التي يتبعون لها، خاصة اذا كانوا من اوروبا وامريكا، ولكن لان الزميلة هويدا ليست امريكية او فرنسية او بريطانية، وانما مصرية تعرضت للاعتقال ولمنع من السفر، واستجواب النيابة العامة.

مشكلة الزميلة هويدا انها كانت، وما زالت، من اشد الناقدين للنظام الحاكم في بلدها، والمعترضين على التعذيب وانتهاك حقوق الانسان، وقد عبرت عن هذا الموقف الاخلاقي بجرأة وشجاعة في مقالاتها في هذه الصحيفة.

لا نعتقد ان اعداد برنامج عن التعذيب في مصر يشكل تهديدا للأمن القومي المصري، بل يعزز هذا الامن، ويساعد في منع هذه الممارسات التي تشوه صورة مصر وتراثها الحضاري الضخم، وتجربتها الثقافية الابداعية في مختلف المجالات.

من يهدد الامن القومي المصري هم اولئك الذين يحولون مصر الى اقطاعية لحفنة من القطط السمان، لتنهب من ثرواتها، وتمتص عرق الكادحين المعدمين من ابنائها، وتكون دولة داخل دولة، وتوظف المؤسسات الامنية للتستر على جرائمها هذه.

الامن القومي مهدد بسبب الفوارق الطبقية الضخمة، حيث طبقة مترفة لها انديتها ومطاعمها ومحلاتها، وتترفع عن التعامل بالعملة المحلية، وطبقة اخرى من الغالبية الساحقة لا تجد رغيف الخبز لاطعام اطفالها، وان وجدته فمن النوع الرديء الذي لا يصلح للاستهلاك البشري.

من يعتدي على اعراض الصحافيات ويغتصب الصحافيين، لن يتورع عن التعرض لصحافية مصرية احبت وطنها، وانحازت الى المضطهدين من ابنائه، وقررت ان توظف مهنتها في سبيل تخفيف معاناة هؤلاء ان لم يتأت لها منعها.

الزميلة هويدا طه ستقف امام القضاء ليس كمجرمة، وانما كمدافعة عن حقوق الانسان، ومعارضة للتعذيب، وانتهاك الاعراض، ولذلك ستحتل مكانة بارزة ومشرفة في سجل مصر الوطني والاخلاقي المشرف، وهذه هي المكانة التي تستحق.

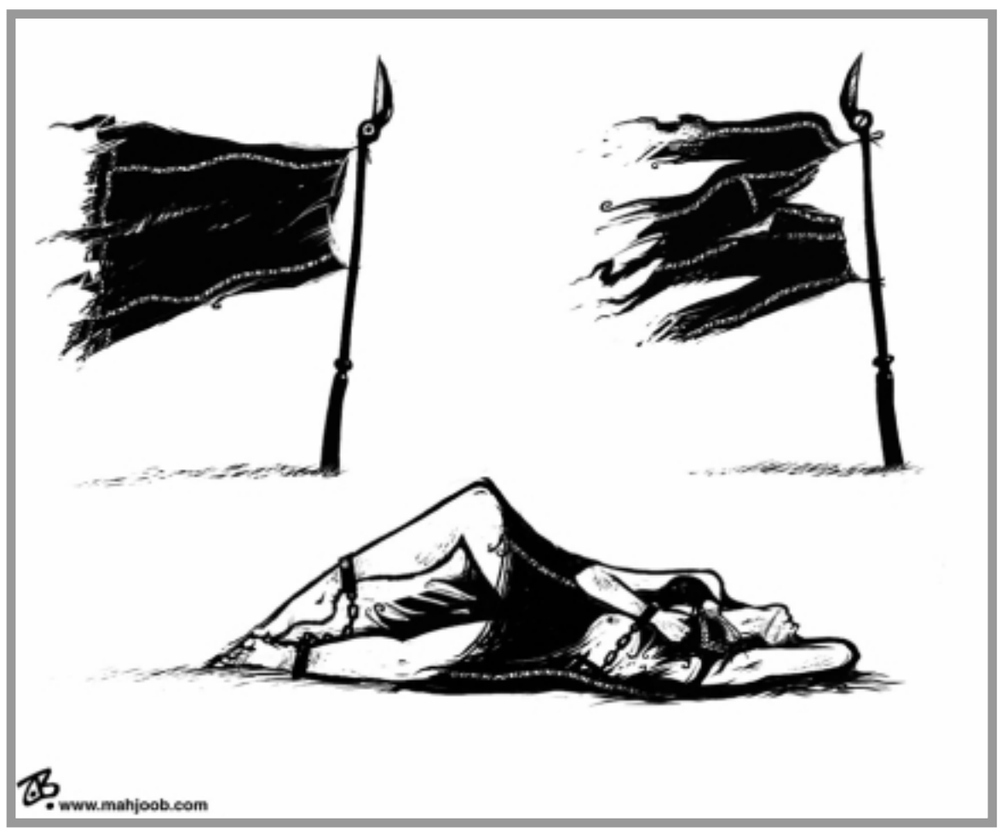

ميليشيات الانتداب «الديمقراطي»

محمد صالح الحسيني

■ يبدو ان صناع الفتن المتنقلة الطائفية منها والمذهبية قرروا ان ينقلوها سريعا من العراق الى لبنان، وان يرفعوها على حراب بنادقهم تماما كما فعلوا ذلك من قبل في اواسط السبعينات ظنا منهم ان التاريخ يمكن ان يعيد نفسه فينقلب الصراع السياسي الدائر هناك بين مدرستين في الفكر والممارسة الى حرب اهلية تخرج لبنان مرة ثانية من الصراع العربي الاسرائيلي ليصفو لهم الجو من اجل تمرير خطة بوش ـ رايس الجديدة في حشد معسكر المعتدلين ضد معسكر المتطرفين او الراديكاليين كما ينظر المحافظون الجدد في آخر حروبهم قبل ان يرحلوا من الاقليم العربي الاسلامي.

وقد اختاروا «الجامعة العربية» في بيروت، حيث التنوع السكاني والموقع الجيواجتماعي والجيوسياسي للناس والاحزاب يشكل لوحة التعايش السني ـ الشيعي والاسلامي المسيحي واللبناني ـ الفلسطيني حتى يمعنوا في تمزيق هذا النسيج اللبناني المتوافق على التعايش والعيش المشترك. ولم ينتظروا طويلا هذه المرة.

فسرعان ما نزلت البنادق الرشاشة وصد القناصة السطوح والابنية العالية ونزل «الفتوات» الى الشوارع والازقة وقطعوا الطرقات.

قبلها بيوم ـ اي يوم الاضراب العام الناجح جدا للمعارضة الوطنية اللبنانية ـ حاولوا ما استطاعوا في توتير الاجواء واظهارها «شوارع» منقسمة على نفسها مذهبيا وطائفيا لكنهم لم ينجحوا بل «بهت الذي كفر» عندما فاجأتهم المعارضة بالانضباط والدقة والتنظيم والصبر على الاذى والرد على الاستفزازات بطريقة «واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما سلاما».

لكن اصحاب السوابق الميليشياوية نفخوا في الفتنة عند المساء وانقلبوا على كل شعارات دولة القانون ولا سلاح غير سلاح الدولة ولا حل الا بالحوار والتشاور والعودة الى العقل وقرروا العودة الى مطالباتهم التي ابتدأوا بها مواجهة الامتحان عندما طالبوا وقتها بضرورة تدخل الدول الكبرى لحماية ثورة الارز الجديدة وعهد الاستقلال الثاني وقالوا بالحرف الواحد «نعم نريد الانتداب والوصاية الاجنبية لان حياتنا في خطر».

هذا بالضبط هو ما كانوا يريدونه يوم الخميس الماضي عندما «فلتوا» ميليشياتهم على الناس وعلى الجيش اللبناني الذي اخذوا عليه تقاعسه في قمع المعارضة، بل ثمة من اتهمه بالتواطؤ! مع المعارضة!

وهنا ثمة تقارير تشير الى ان القوى المتطرفة في معسكر 14 شباط كانت تخطط لحدوث فلتان امني عام ينتقل من مدينة الى مدينة انطلاقا من بيروت يعجز الجيش والقوى اللبنانية عن السيطرة عليه ومن ثم لتصل الامور الى ذروتها حتى تتم الاستعانة بما بات يسمى بالمجتمع الدولي ليطلب قوات حماية دولية من قوات متعددة الجنسية.

هذه هي سنة المستقوين بالخارج على اهلهم في الداخل في كل مكان. في فلسطين الاستيطان والاحتلال والاغتصاب «الديمقراطي»! وفي العراق الغزو «الديمقراطي» والعدوان والاجتياح وتفكيك الدولة والمؤسسات، وفي لبنان الوصاية و«الانتداب» «الديمقراطية»!

انه عصر الفتن «الديمقراطي»! للاسف الشديد يُطبق على انفاس العالمين العربي والاسلامي والنخب العربية والاسلامية وكأنها في حيرة من امرها او انها تعيش عصر التيه والضياع!

الم تثبت معركة الـ33 يوما ضد لبنان بان الامريكيين حركوا قاعدتهم العسكرية المتقدمة اسرائيل لتقلب طاولة الحوار على رؤوس اللبنانيين وتقضي على المقاومة وحزب الله وكل من تحالف معه ليلحقوا لبنان بالعراق وفشلوا؟!

وانهم اليوم يريدون ان يعيدوا الكرة بواسطة «السياسة» و«التمويل العالمي» والبنك الدولي وصندوق الدولي ما لم يستطيعوا انجازه او تحقيقه بالحرب؟!

انها الحقيقة الساطعة التي لم تعد تحتاج الى دليل او برهان اضافي لكثرة ما يتحدثون عنها هم على السنتهم وبكل اللغات الحية في العالم.

والا ماذا يعني ان المشكلة في لبنان هي لا تزال في سلاح حزب الله الموجه ضد اسرائيل فيما سلاح الميليشيات السلطوية حر طليق؟!

وماذا يعني الحديث عن التدخل السوري ـ الايراني فيما السفراء والقناصل الامريكية والفرنسية و...الخ تتدخل في كل صغيرة وكبيرة في لبنان ولا تغادر قصور رجال الدولة وزعماء الميليشيات؟!

وماذا يعني تهديد اللبنانيين «بالمجتمع الدولي» و«المحكمة الدولية» و«القوات الدولية» وكأنه بلد قاصر وعاجز ولا رجال فيه ولا قضاة ولا قضاء ولا دولة ولا من يحزنون؟!

انها كذبة الديمقراطية والحرية وحقوق الانسان الامريكية التي يريدون من خلالها نشر مظلة الوصاية الدولية بقيادة الدولة.

اللهم خلصنا من شر أنفسنا

فريح ابو مدين

■ لقد ترددت كثيرا قبل ان اخط هذه المقالة لكوني اعرف سلفا ما ستثيره عند البعض من ردة فعل غاضبة وذلك ممن يحملون اختام الادانة والبراءة لاعتقادهم بالوصاية على كل الفلسطينيين (وليس على فلسطين). ان تشخيص حالتنا الفلسطينية معروف للجميع الا ان احجام الاغلبية الصامتة عن مواجهة من منحوا لانفسهم عصمة وحصانة على حساب الشعب ومستقبله جعل الحديث عن حالنا محفوف بالمخاطر والمشاكل. ان حالنا يجوب ويستوجب ان نقولها بالفم المليان ان مصيبة فلسطين وشعبها كبيرة وحجم من تآمروا عليها تاريخيا كان كبيرا وليس هذا ما اقصده بهذه العجالة ولكن سأتحدث عن الجانب الفلسطيني في هذا الصراع.

لقد ابتليت من اهلها بتعدد الاجتهاد والولاء للغير مما انتج فصائل ومنظمات تحولت مع الزمن الى ميليشيات لقد خرج بعضها من رحم المعاناة والهزيمة وبعضها بقرارات عربية وغير عربية وبعضها بايديولوجيات الحرب الباردة يجمعها جميعا ادعاء كل منهم انه الاقدر على التحرير واسترداد فلسطين من غيره وللأسف الشديد انكشف كل ذلك حيث ان الجميع بلا استثناء تراجع عن فكرة تحرير فلسطين لانه بصراحة لم تكن هناك ارادة وبرنامج لذلك واستبدل الهدف تحت بند الواقعية الى شعار ازالة اثار العدوان ان جاز التعبير حيث قبلت الفصائل والمنظمات من اليسار واليمين ومن الصغير حتى الكبير دولة في حدود هزيمة 5 حزيران (يونيو) وربما اقل واصبحت حدود الضفة والقطاع هي حدود حلم الكيان الفلسطيني.

هنا نذكر بالحقيقة ان منظمة التحرير الفلسطينية ومن خرج من رحمها ومن انضم اليها ومن استولى عليها ومن قتلها ومن يريد احياءها قامت حين كانت الضفة والقطاع ارضا عربية 100 % وان كانت تحت ادارات عربية. كان الهدف من انشائها قضية تحرير الارض والانسان. ان كان الحال كذلك فتحت اي بند او مسمى ما يجري الان؟! على جيفة اسمها السلطة؟! على ان تحول غزة وغزة فقط الى سلة زبالة للقضية؟! والوداع للضفة؟! والقضية!! لقد قال الامام علي كرم الله وجهه حينما قامت اولى المعارك السياسية في الاسلام انه الحكم نعم انه الحكم لسلطة هزيلة لم يبق منها ما يستحق صراع الاخوة الاعداء.

بصراحة لقد افلست التنظيمات حينما لم تستطع ان تتفق على مفهوم المقاومة والوحدة الوطنية وانحرفت برامجها للبقاء في السلطة او نيلها واقصاء الطرف الآخر عنها هنا انكشف الطابق وتبين هزال نضالهم وتبخر الفخر بالديمقراطية وظهر زيف اوسلو ومن ناصرها ومن عاداها ومن وصل بها للسلطة وتاه بذلك اعجابا؟!

يا لهول ما يجري! من يستمع الى صوت الفصائل عبر اذاعاتها (والتي تسمح بها اسرائيل) وهي تصب قيح صراخ التخوين والحث على القتل بين الاخوة ليس امامه الا ان يفقد صوابه. ايها المتحاورون بالنار اعطونا نموذجا واحدا فعل ما تفعلون بأقدس قضية من ألفيت كونج شرفا الى ثورة كاسترو غربا. هل بعد هذا يليق الصمت؟! لك الله يا شعب فلسطين لقد دفعت ثمنا غاليا من دمائك امتصه من جسدك المتقاتلون على اللاشيء واصبحت بنادقهم قاطعة طريقك الى الحرية واقامة الدولة وآن الاوان لكل فلسطيني اينما تواجد ان يقول «حلوا عنا» باعلامكم وبياركم ورياتكم التي استبدلتموها بعلم فلسطين.

لماذا يدمرون هذا الوطن الجميل... لبنان؟

مطاع صفدي *

■ العراق في قلب التهلكة الجماعية. المجازر اليومية أبطلت الحديث عن التوقعات الكارثية، عن الدفع نحو شفا الهاوية. فالسقوط إلى القاع هو الحاضر الراهن؛ وما بعد السقوط ليس موضع اهتمام من أحد. أما لبنان لأنه لا يزال متشبثاً بشفا الهاوية. لحظته (البطولية) إن صح القول، أنه أمسى يقاوم الكارثة الداخلية، بعد أن أحبط وقاوم العدو الخارجي خلال الصيف الماضي، إنه ينتقل من مرحلة المقاومة ضد الغزو العسكري، إلى لحظة المقاومة ضد الغزو السياسي الجواني. الغزو الذي يستهدف تحطيم كيانه التاريخي الذي عجزت حروبه الأهلية طيلة الربع الأخير من القرن الماضي عن تطوير الصدوع التي أحدثتها إلى انشقاقات فاصلة حاسمة. كأنما المهلكة الحالية، عليها أن تكمل وتنجز ما لم تستطعه في أوائلها وسابقاتها من نكبات الماضي القريب.

التحدي الأعلى الذي تواجهه حضارة لبنان ليس في انتصاره في الحرب القادمة بوسيلة الحرب، بل بالسلم وحده. إنه السلم الذي هو حقيقة المقاومة قبل أن تضطر إلى مواجهة السلاح بالسلاح. كل أفضلية الرهان الحالي على أشباهه الماضية، هو أن ثقافة المقاومة راحت تمارس أعلى جهوزيتها الإنسانية، قبل العسكرية، فتجعل نيران الفتنة تشتعل فقط في أيدي أصحابها، دون أن تتمكن من قذفها إلى أجساد ضحاياها. ما نقوله أن معركة بيروت خلال الأسبوع الماضي، من يوم الإضراب الطويل، الى افتعال اقتتالات الجامعات، ومن ثم إلى انفجار اقتتالات الشوارع والأزقة، هذه المعركة تطرح العنوان الواحد حول رفض الفخ الدموي الأكبر المنصوب للبنان، وللمشرق العربي كله من حوله. وهو العنوان الذي تزدحم تحته الاحتمالات المتناقضة. ويمكن تعداد بعضها كما يلي:

في لبنان الطوائف والمذاهب والأعراق، حدث لأول مرة في تاريخه الحديث أن انخرطت فئة واحدة في حرب قادرة على الاصطفاف في خانة الحروب الوطنية وليس الطائفية، القومية وليس القطرية فحسب، الإنسانية التقدمية وليس العنصرية. فكان لها أن تبتعث شيئاً من ذاكرة الصمود العربي، من قصة الصراع الوجودي مع إسرائيل. وأن تحيي الأمل مجدداً بإمكانية سحب ومحو الخارطة الفئوية التقليدية، تحت وطأة خارطة جديدة تستوحي شيئاً من ثقافة الحداثة المدنية. وبالتالي العمل على تنمية معاني الإنجاز الاستثنائي ذاك، واجتراح مشروع واقع نموذجي آخر ضداً على النموذج العراقي الذي يتم العمل الدؤوب، بعد محاولة تجذيره في أرضه، على تصديره إلى أوسع محيط عربي وإسلامي حوله.

وبالطبع يبدو لبنان هو القطر المرشح أكثر من سواه لتلقي جرثومة الوباء العراقي، التي يمتلك هو جراباً غاصاً بصنفها المسموم، والمدفون تحت جلد رقيق من السلم الأهلي المخادع. فقد استوطنته كل الأسباب الموضوعية والمصطنعة الباعثة على الفتن. حتى أضحت الفتنة هي آلية التغيير الوحيدة الممكنة الآخذة بتلابيب مجتمعه، والمفروضة على مسيرته كإيقاع كارثي محتوم، ما بين كل مرحلة وأخرى. والتغيير الناجم عن كل حقبة تَهْلُكَة تتلخص في الاجهاز على مرحلة النهوض المسجلة خلال ألفسحة الزمنية، أي الهدنة بين تهلكتين. هكذا يتحدد الزمن اللبناني عبر التعايش بين خيار من ارهاصات الحرب، أو التساقط في أوارها.

ليست المسألة أن يتعظ جيل الحرب من آثارها التدميرية الرهيبة كيما لا يقع أبناؤه في تكرار المصيدة السابقة عينها. فالواضح من مسلسل الفواجع الجماعية المضطرد في أمثولاته منذ ستينيات القرن التاسع عشر، أي منذ بداية ما يعرف باسم (المسألة الشرقية) المقترنة بالتدخل الغربي الأوروبي في عمق الشؤون السياسية والثقافية لإمبراطورية آل عثمان، ومن البوابات الجانبية الضعيفة في طرفي كيانها الممتد من عمق أوروبا الوسطى وجنوبها إلى بلاد الشام. فكان لبنان هو الساحة المفضلة للاختراق الأوروبي، ومن قبل معظم دوله الكبرى التي اختارت كل منها الطائفة التي تناسب عقيدتها وسياستها، وتعهّدتها بالرعاية أو الحماية المباشرة.

لبنان الحاضر لا يكاد يختلف كثيراً في معطياته الطوائفية عما كان عليه ما بين مرحلتي الحماية فالانتداب الفرنسي إلى عهود الاستقلال الوطني المقترنة حتى اليوم بفصلين بارزين من مسيرة الاقتتال الأهلي المتناوب، إلى جانب وقائع أخرى تفصيلية، لكنها من فصيلة الصدام السياسي العنيف المستدام. غير أن احداث الأسبوع المنصرم لا تبشر أهل بيروت خاصة إلا بالهلكة الكبرى هذه المرة. إذ سوف يتحول لبنان كله إلى جبهة واحدة متداخلة ما بين الجماعات السكانية، وفي عمقها الديني. إنها حرب الاسلام المذهبي على ذاته؛ كما أنها حرب المسيحية ما بين حزبي التسلط على مقدراتها الداخلية. وبالطبع فالمحصلة هي حرب الجميع على الجميع.

هذه الصورة الرهيبة يعرفها المخيال الاجتماعي، ويتوقعها الزعماء السياسيون الحاليون الذين سينقلبون إلى قادة ميليشيات، كما كان أكثرهم من قبل، ومنذ حرب الخمسة عشر عاماً غير المنتهية بعد، والتي أغلقت جروحها على زغل. فما بين يومين فقط من هذا الأسبوع الكئيب صار الانفجار الأعظم قاب قوسين. بل إن اقتتال بعض الشوارع كاد يتطور إلى اقتتالات المدن كلها ساحلاً وجبلاً وسهلاً. فالموت مهما توقعه الإنسان إلا أنه يحل فجأة دائماً. وكان الزعماء منهمكين ولا شك في اعداد مهرجان الاستقبال بكل أدواته التحريضية والتسليحية الأولية. ومع ذاك فما حلّ في الشوارع ووقع في الأزقة كان يفوق توقع النصر أو الهزيمة. إنها المواجهة المادية والدموية مع النموذج المصغر الذي سوف يسيطر على كل حي وكل مدينة.

هذه التمارين الأولية على معاشرة الهول الأعظم القادم من شأنها أن تفرض على عقول الجميع البداهة الواحدة، وهي أن الفتنة ليست أكره الحلول لكنها هي الناسفة لأسس كل حل قبل أن تظهر معالمه. والفتنة إذاما اندلعت، إذا ما خرجت عن السيطرة، لن تترك أحداً يبحث عن صانعيها ومفتعليها، بقدر ما يكون فقط منهمّاً بتعداد الضحايا لدى أعدائه، ودون أي اعتبار لضحاياه هو بالذات. ومع بداية هذه التمارين الخبيثة شرع قادة الساحات في التبرؤ من تبعاتها، وادّعاء فقدان السيطرة. هذه العبارة (فقدان السيطرة) هي الحجة المركزية التي سيختفي وراءها مهندسو الموت، وصنّاع المهالك ما أن تتوالى فصولها ويعم خرابها البلاد كلها.

مهما يمكن أن يقال أن الفتنة هي هندسة خارجية أصلاً، وأنها حجر الأساس في المشروع الشرق الأوسطي، وأنها استنساخ للعرقنة كيما تعود إلى أصلها في اللبننة البائسة، المؤسسة لذاكرة الاقتتالات الأهلوية في المشرق، فإنه يتبقى الدور المركزي للمنفذين على الأرض. فالفتنة مهما عمل على اعدادها وتمويلها الخارج المعادي الا أنها تظلا علامة انفجار الخطأ الأكبر، الكامنةُ أصولُه في بنية التكوين الذاتي للمجتمع المدفوع والمندفع إلى هاويته الأخيرة.

فاللاعبون المحليون هم المسيطرون أولاً على أرض المعركة، وبالتالي تُترك لهم حرية التدابير المباشرة، وقد يتفوق بعضهم على ذكاء الأسياد المخططين، بما يبتكرونه من أحوال المهالك وأساليبها. فالمباريات الشيطانية مفتوحة بين (ورشات) أو فرق الموت، كما في العراق، وبين هؤلاء المنفذين جميعهم وأسياد الاحتلال وأعوانه المباشرين. لن يخرج الأمر في لبنان كثيراً عن أمثولات بلاد الرافدين، إذا ما تهاوت آخر حصون المعاندة والممانعة ضد المحنة المرسومة.

من هنا تجيء خطوط المراهنة الفاصلة التي لا يزال يتشبث بها الرأي العام المدني في لبنان وهو على شفير الهاوية الأمريكية المفضوحة بكل رموزها وشعاراتها وأدواتها. إنه يرفض منطق الانسياق الغريزي، والانجرار الأعمى، بالرغم من شعار التعبئة المذهبية. وهو لا يزال يتطلع إلى امكانية إنتاج مقاومة مدنية ضد العدو الداخلي، تترجم بعض المعاني الوطنية المكتسبة من إحباط العدوان الاسرائيلي خلال الصيف الماضي. إنها المقاومة الأخرى التي لا يحدها حزب ولا طائفة أو مذهب، والتي يجد فيها كل مواطن حر نفسه بين نفوسها، ويلقى له مكاناً في صفوفها. إنها لحظة وعي وطني وكفاح شعبي حقيقي غير مسبوق من أجل إحباط الفتنة، من أجل حصر وحصار النار في أيدي موقديها قبل أن تندفع إلى جنبات البيت كله.

ليس النصر في الفتنة لطرف على الآخر، لكنه النصر (على) الفتنة نفسها، قطعُ الطريق عليها قبل أن تسد طرقات السلام كلها في الوطن اللبناني الصغير الجميل، قبل أن يمسي قيد التدمير الشامل لكيانه. فالفتنة القادمة يراد لها أن تتوج مسيرة الحروب الأهلية، وتتفوق عليها جميعها. فإن عجزت اقتتالات الخمسة عشر عاماً عن تثبيت خارطة تقسيم طائفي مناطقي، ولكن دون إعادة وحدته الوطنية الا في ظل وصاية نظام استبدادي، كاستطالة رعناء ممتدة من الجار السوري ضداً على إرادة شعبه المغلوب على أمره، فإنه ينبغي تعجيز اللحظة الراهنة من مصير لبنان عن إعادة إنتاج الفتنة الكبرى المنتظرة، على حطام الفتنة الصغرى سابقتها. إنه الأمر اليومي التاريخي بتفعيل هذا التعجيز الذي ليس له حزب معين أو طائفة أو مذهب. إنه حماية لبنان من قبل أهله، كل الأهل.

لقد وقعت مناورة أولية في محاولة توطين الفتنة خلال الأسبوع الأسود المنصرم، جاءت بالتهديد الأعظم. لكنها في الوقت عينه أعطت المثال وضده. وهذا (الضد) لا يزال في طور الأمل والتوقع. ومع ذلك برهن لكل الأفرقاء أن خيار الامتناع عن المجازفة النهائية ما زال قائماً، وإن راح يخسر أوراقه بسرعة مخيفة. وربما اعتذر البعض بأن عناصر الحرب ليست متوفرة بالرغم من الدعم السياسي والمالي من قبل البوشية المستنفرة بكل نواياها الشريرة قبل الانطفاءة الأخيرة.

لكن المسألة سوف تتوقف طويلاً على اتخاذ الموقف من هذا الخيار، من سوف يأخذ به طوعاً، ومن سوف يجبر عليه قسراً. فالانتصار على الفتنة قبل وقوعها هو خيار المقاومة المدنية الصاعدة.

* مفكر عربي مقيم في باريس

السعودية: طاعة ولي الامر مسابقة

د. مضاوي الرشيد *

■ بعد عقود طويلة من ترويج فكر ديني يدعو الى ان طاعة ولي الامر عبادة دخلت السعودية بجامعاتها وجمعياتها مرحلة جديدة اذ اصبحت طاعة ولي الامر مسابقة بعد الاعلان عن مسابقة تستهدف مليون طالب وطالبة ليتعرف هؤلاء على الاحاديث النبوية الشريفة الواردة في طاعة ولي الامر وبالاضافة الى الجامعة، تنظم المسابقة بيروقراطيات دينية كثيرة هدفها حفظ «الامن الفكري» وتثبيت طاعة ولي الامر في قلوب الجيل الشاب.

لم يخرج استنكار واحد لمثل هذا المشروع سوى من صوت جريء هو صوت الدكتور محمد الاحمري المعروف بثقافته الدينية وسعة اطلاعه وتجاربه في مجال العلم ليس فقط بالسعودية، بل خارجها ايضا. اعترض الدكتور الاحمري على هذه المسابقة وجاء اعتراضه على صفحات مجلة العصر الالكترونية وليس على صفحات المطبوعات السعودية المعروفة. كان اعتراض هذا المفكر واضحا وصريحا وقد عبر عنه في جملة جريئة حين قال: نحن الامة التي انهكتها الطاعة مما افقدها احترام العالم.. مجتمعاتنا اصبحت تقطر وتفيض بثقافة السمع والطاعة بل وتزيد على الجميع عربا وعجما بثقافة «الشيوخ انجس» يبدو ان صبر الدكتور قد نفد ولاسباب وجيهة بفقه الاستبداد الذي مارس الانتقائية في تفسير النصوص والمراجع وطمس كل ما يحرك الضمير ويدعو الى التمرد على الظلم والجور. يعترض الدكتور الأحمري على الفكر الديني السياسي الذي هيمن في السعودية وارتبطت هيمنته مع مشروع تقنين الدين واستقطاب طلبة العلم وحصر الافتاء في فاتيكان يعين اعضاؤه بسرية تامة واوامر تأتي من فوق يراعى في انتقاء هؤلاء ليس العلم الشرعي والتمرس به بشكل عام بل بالتوازنات والاصول والانساب واهم المعايير هو مدى استعداد هذه البيروقراطية الجديدة لترويج ثقافة الطاعة لولي الامر.

وبعد ان اتهمت جامعات السعودية وخاصة جامعة الامام بتصدير فكر التكفير وما يسمى الخروج على الحاكم ها هي اليوم تساند مسابقة العصر لتنشر فكر الطاعة علها بذلك تبرئ نفسها من التهمة والتي كادت ان تودي بطاقمها الأكاديمي فتداركت الامر وانخرطت في مسابقة لنشر الامن الفكري والذي يدعو اولا واخيرا الى القبول بمبدأ الموالاة والسمع والطاعة لولي الامر.

لو جاء انتقاد المسابقة من خارج السعودية لكان اتهم المنتقد بالخروج على الحاكم وبث الفتنة وتجييش الشباب لكنه جاء من قلب السعودية ومن ابنائها الذين درسوا في مدارسها ويتدربون على ايدي ائمتها. ولو جاء هذا النقد من الغرب لكان الجواب سهلا وبسيطا اذ لا خير يرجى من اعداء الامة كالكفار او من ابناء جلدتنا المستغربين كخوارج الخارج او التكفيريين المعروفين والذين استوطنوا بلاد الكفر.

مقال الدكتور الاحمري مقال جريء يضع النقاط على الحروف بدون مراوغة او تمويه.

كثيرة هي انتقادات الغرب للفكر الديني السعودي ونشدد على لفظ السعودي حتى نعزل هذا الفكر وننأى به عن مقولة تمثيله للاسلام السني وان مثل تيارا ما فهو يمثل تيار الاسلام المستقطب الذي يخدم السلطة وسنجد ان له صدى في عواصم عربية كثيرة اذ ان هذا الفكر يقبع في الوزارات الجديدة والمؤسسات الدينية التي استحدثتها الانظمة العربية المتعطشة لفكر يشرعن للاستبداد والاقصائية ويحرم نقد السلطة او حتى ذكرها دون عبارات الاطراء والثناء والمديح. نقد الغرب لهذا الفكر لا يتجاوز مفهوم الحرب على الارهاب ونشر الراديكالية وآخرها كان برنامج «مراسلات» على القناة الرابعة البريطانية حيث، تم التركيز على ما تصدره السعودية لبريطانيا في مجال شرعية زواج القاصرات وانتهاك حقوق الشواذ جنسيا ورفض الديمقراطية بعد وصفها بكفرقراطية من قبل الدعاة البريطانيين الذين تلقوا علمهم الشرعي في السعودية ليعودوا وينشروا هذا العلم في المساجد وحلقات العلم في مدينة برمنغهام. لا يهم الناقد الغربي مدى تأثير فقه طاعة ولي الامر على المجتمع، بل هو يشجع مثل هذا الفكر من جهة ولكنه لا يقبل بالفكر الذي يرفض الشذوذ ويشرعن لزواج البنات القاصرات على اساس انه سنة نبوية. كما يتم حاليا في بعض المساجد البريطانية والتي استعرضها الفيلم الوثائقي.

لا نرجو من افلام الغرب ان تسلط الضوء على ثقافة السمع والطاعة وعملية غسل الادمغة التي تروج لها مسابقات كهذه المذكورة لان الغرب نفسه يظل جزءا من عملية الترويج هذه اذ ان هيمنته خلال القرون السابقة على المنطقة والتفكيك لموروث هذه الامة ومن ثم تقليد زمام الامور الى نخب حاكمة ادى الى مأسسة هذه الثقافة وتقيدها ببيروقراطيات كبيرة وجامعات شامخة هدفها الاول والاخير صبغ الطاعة بصبغة مقدسة حتى يصعب تفكيكها والخروج من دائرتها الضيقة.

ما يشير اليه انتقاد الدكتور الاحمري هو اوسع واشمل من مسابقة طلابية اذ انه يمس التراث الديني بتعددية مصادره وشرحه والائمة الذين يزعمون انهم يحفظونه من الاندثار والعبثية. تعاني السعودية من مرض عضال هو مرض مأسسة الدين اذ يصبح الموروث الثقافي مرتبطا ببيروقراطية سلطوية تستمد شرعيتها من اليد التي تمولها وليس من استقلاليتها وقدرتها على تحرير العباد من العبودية وتفجير القدرات النقدية وتثبيت منهجية جديدة تساعد الطالب على تبوؤ حيز حر بين فتاوى السمع والطاعة وفتاوى التكفير والخروج على الحاكم. انعدم هذا الحيز الوسط وتقلص، فلم يبق للمرء سوى التمركز اما على ضفة ثقافة السمع وما يأتي معها من نصوص مقدسة او على ضفة ثقافة التكفير والعنف.

الحجر على الفكر الديني في مؤسسات رسمية وجامعات معروفة لم يؤد الى تفشي ثقافة السمع والطاعة، بل أدى الى تشظي الدين والهيبة للناطقين باسمه وكذلك ساهم في هروب الفكر الآخر الى اماكن اخرى اخذت من الثورة الالكترونية والشبكة العنكبوتية ملاذا لها بعيدا عن السلطة والرقيب. ما فعلته السلطة السعودية بالدين ومأسسته جريمة بحق الامة التي فقدت احترام العالم لها كما ذكر الدكتور الاحمري. ولم يكتف هؤلاء بالمأسسة بل هم اليوم يطمحون لتقنين الفتاوى وحصرها بأئمة متخرجين من مدرسة السمع والطاعة ولكنهم هنا يخوضون حربا خاسرة جاءت خسارتها مع انفتاح وسائل الاعلام وتعددها وتشعبها.

حاولوا قتل التعددية بحصر النصوص والغاء الفصول وكل ما هو متعلق بالموروث الثقافي الداعي لنفض الغبار عن التفسيرات التي تهز الشعوب وتدعوها الى رفض الغبن. ولا يجد الشباب اليوم مثل هذا التراث الا على صفحات الانترنيت وفي المكتبات الخفية ورفوفها المظلمة.

بدلا من مسابقات طاعة ولي الامر تحتاج الجزيرة العربية الى عودة هذه الثقافة الى الحيز العام وبشكل علني لان العلنية وحدها كفيلة بتنقيح هذا الموروث وتطويره ليصبح ذخيرة يقاوم بها الاستبداد دون اللجوء الى التكفير والتفجير. وطالما غيب هذا الموروث وحل محله فكر السمع والطاعة لن نستطيع ان نخرج من دوامة العنف الذي هو افراز لعملية غسل الادمغة من قبل الجهات الرسمية ومؤسساتها الدينية. العنف الفكري والاقصائية اللذان تمارسهما هذه السلطة ومؤسساتها هما اللذان افرزا العنف المضاد والذي يشرعن لنفسه بالاستناد الى نصوص اخرى طمستها المدرسة والجامعة والهيئات الكبيرة والصغيرة. بعد ان خذلته المؤسسات سيظل شبابنا يبحث عن فتاوى أبوات العصر عله يجد ما يتسلح به في مواجهة فقه السمع والطاعة. وان لم يأخذ الموروث الاسلامي التاريخي بوجوهه المتعددة مكانه الذي يستحقه في المناهج الدراسية ويناقش بحرية ومنهجية كجزء من الثقافة العامة سيظل الشاب المحتار والمتمرد يبحث جاهدا عن فكر آخر وتفسيرات جديدة لنصوص قديمة.

وان اعترض احدهم وقال ان المؤسسات ضرورة مهمة لنشر الدعوة وتثبيت الدين سنرد عليهم ونقول ان مسلمي الاتحاد السوفييتي قاوموا الغاء الدين من المنزل ومن الحيز العائلي وليس بمؤسسات وجمعيات وجامعات فبقي الدين واندثر الاتحاد السوفييتي. وتتكرر الامثلة في الصين وغيرها من المناطق التي تعرضت لمثل هذا الالغاء والمحو.

ويبدو لنا ان خطر المؤسسات الدينية الحكومية على الدين اكبر بكثير من خطر العدو المجاهر بعدائه للدين واهله. اذ ان هذه المؤسسات مفوضة بمهمة معينة ولها اجندة مرتبطة بالسلطة وليست مفوضة من الشعب وارادته وبانعدام المؤسسات الدينية المستقلة في بلد كالسعودية تنعدم الثقافة المتنوعة التي تنبش الموروث القديم لتقدم حلولا للحاضر والمستقبل. تحرير الدين من هيمنة السلطة يجب ان يكون مشروعا دينيا يسبق المشاريع الاخرى المطالبة بالمشاركة السياسية والعدالة وتوزيع الثروة لان هذا التحرير سيعجل المسيرة التي تطالب بمثل هذه الاصلاحات. اكثر من اي وقت مضى نجد انفسنا رهينة لفقه السمع والطاعة الذي اختلس تاريخنا وسرق فكرنا وسلب قدرتنا على تخيل حقبة تاريخية لا نكون فيها مستعبدين اما من الخارج او من الداخل وهل يكون مقال الدكتور الاحمري الناقد لمسابقة طاعة ولي الامر بداية للتفكير في مشروع اقامة مؤسسة دينية مستقلة للفقه السياسي بتعدديته التي تراكمت خلال اربعة عشر قرنا وهو ذو باع طويل في العمل المؤسساتي، حيث نتعلم لماذا خرج الحسين على والي دمشق.

* كاتبة واكاديمية من الجزيرة العربية

القدس العربي
يومية سياسية مستقلة
تطبع في لندن ونيويورك وفرانكفورت وتوزع في جميع انحاء العالم
الاشتراكات:
الاشتراك السنوي 450 جنيها استرلينيا في عموم بريطانيا و 750 دولارا امريكيا للوطن العربي وخارج بريطانيا بما في ذلك اجور البريد.

الناشر:
مؤسسة القدس العربي للنشر والاعلان

رئيس التحرير:
عبد الباري عطوان

المقر الرئيسي (لندن): 164/166 كنج ستريت، همرسميث، لندن دبليو 6 او كيو يو
هاتف: 8008 741 0208 (6 خطوط)
فاكس: 8902 741 0208 أو 7637 748 0208
مكتب القاهرة: 43 أ شارع قصر النيل ـ الدور الاول ـ شقة رقم (2). هاتف/فاكس: 3901523(202)
مكتب المغرب: 80 شارع فال ولد عمير شقة 7 الطابق الرابع ـ الرباط. هاتف/ فاكس: 723152(37 212)
مكتب عمان: شارع الصحافة مجمع البداد التجاري الطابق الرابع.
هاتف/فاكس: 5066089